الفصل الرابع

الديموقراطية تواجه مجاعة الشتاء

كانت تجربة مريرة بما فيه الكفاية لفلاديمير بوتين أن يشهد انهيار المثل الأعلى السوفييتي في أوروبا، عاجزًا عن إيقاف الخسائر. كان يعلم أن ألمانيا المقسمة لا يمكن أن تدوم، على الرغم من تعهد إريك هونيكر في وقت مبكر من عام 1989م أن جدار برلين سيقف «خمسين عامًا بل مئة عام». كان أكثر ما أرَّق بوتين هو ما عدَّه استسلامًا سوفييتيًّا دون قيد أو شرط، يعقبه- قبل انسحاب مهين- فوضى وكارثة. قال: «هذا ما يؤلم، أسقطوا كل شيء، وذهبوا بعيدًا»[1].

الرجال والنساء الذين عملوا معه ما يقرب من خمس سنوات أُلقي بهم جانبًا، وهجرهم أنصارهم السوفييت، وتركوهم تحت رحمة ألمانيا الغربية ومواطنيهم الحاقدين، ووجد جيران بوتين وأصدقاؤه أنفسهم فجأة بلا عمل، منبوذين؛ لعملهم في جهاز أمن الدولة، ومُنع معلم ما قبل المدرسة لكاتيا، وكان ضابطًا في جهاز أمن الدولة، من العمل مع الأطفال، وتذكر ليودميلا إحدى صديقات وقد «بكت لفقد المثل العليا عندها، إذ انهار كل شيء تؤمن به في حياتها، فبالنسبة إليهم كان انهيارَ كل شيء؛ حياتهم ووظيفتهم»[2].

شعر ضباط المخابرات على نحو خاص بالخيانة؛ فماركوس وولف، رئيس الاستخبارات الخارجية في ألمانيا الشرقية حتى عام 1986م، استاء من لامبالاة جورباتشوف بعد عام 1989م، على الرغم من أنه حصل على لجوء لمدة وجيزة في روسيا، وكتب: «لم يكن هناك

اندفاع كبير لدعمنا من قبل أصدقائنا في موسكو خلال الشهور العصيبة الماضية، فلم نكن مهيئين تمامًا لما حدث؛ فالأخوة الأبدية المفترضة التي رفعنا لها الكؤوس طوال السنين غدت اليوم كما الخرق البالية»[3]، أما هورست بوهم، رئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، فانتحر في منزله يوم 21 فبراير/شباط 1990م، قبل وقت قصير من الإدلاء بشهادته أمام لجنة عن مستقبل الدولة المنهارة، مع أن ثمة شائعات أكدت اغتياله؛ لمنعه من الظهور أمام محاكمة جنائية لرئيسه المستبد في دريسدن، هانز مودرو[4]. وقد علم الألمان الشرقيون بحقيقة عملية (LUCH) لـ(كي جي بي)، وجهودها التي استمرت عقودًا طويلة للتجسس عليهم. وشعر هورست جيهمليتش، مساعد بوهم، بخيانة بوتين شخصيًّا، وقال: «خدعونا وكذبوا علينا»[5].

كانت الـ(كي جي بي) في ألمانيا الشرقية في حالة من الفوضى، تسعى جاهدة إلى تدمير ملفات المخابرات أو إزالتها، في حين تُقاطِع أو تتستر على شبكات عملائها، وتضع الأسس لبناء شبكات جديدة. أمر الرئيس الأخير في دريسدن، الجنرال شيركوف، بإزالة اثنتي عشرة شاحنة من الوثائق في مقرات الفرقة المدرعة السوفييتية وتدميرها. أحرقوا كثيرًا من الوثائق حتى إن الفرن المصمم لهذه المهمة تحطم، وبعد ذلك حفر قائد الكتيبة حفرة في الأرض، وألقى بأكوام من الأوراق بها، وأمر بصب البنزين فوقها. وكذلك أقدم المقدم بوتين على حرق ملفات «كل اتصالاتنا، وقوائم اتصالاتنا، وشبكات عملائنا»، ولكن سارع هو وزملاءه إلى إعادة أهم الملفات إلى أرشيف الـ (كي جي بي) في موسكو. كان الخطر الحقيقي الكامن هو أن تنكشف أسرار الـ(كي جي بي) في الغرب وحلف شمال الأطلسي، مع أن ما سيفعله هو أو أي شخص آخر في مقر القيادة في دريسدن لِوَقف ذلك كان قليلًا.

مع بداية العقد الجديد، استُدعي المقدَّم بوتين وفريقه للعودة إلى أرض الوطن، ولكن بقيت لديه مهمة أخيرة لكونه ناشطًا في الاستخبارات السوفييتية؛ وهي متابعة تجنيد المخبرين، على أمل إنشاء شبكة جديدة من عملاء الاستخبارات تكون بمنزلة الحارس الخلفي في ألمانيا الشرقية الديموقراطية. فاتجه إلى أصدقائه القدامى وتواصل معهم، ومن

بينهم مفتش في قسم شرطة دريسدن، وضابط جهاز أمن دولة يدعى كلاوس زوتشولد، الذي التقى به أول مرة قبل أربع سنوات. وكان زوتشولد قد أخذه في إحدى جولاته المبكرة في ولاية سكسونيا، قبل وصول ليودميلا، وكان يزوره كل حين. يبدو أن زوتشولد لم يعمل قط لحساب الـ(كي جي بي) حتى بعد أحداث عام 1989م. وفي يناير/ كانون الثاني من عام 1990م جنَّده المقدَّم بوتين رسميًّا، وكان ذلك من الأعمال الأخيرة التي أنجزها، وأرسل ملفه بصفته ضابطًا في وزارة أمن الدولة (ستاسي) للمركز في موسكو للحصول على الموافقة. وهو من أملى على زوتشولد رسالة ولائه لـ(كي جي بي)، وقدم لابنته كتاب **حكايات شعبية من روسيا**، وشربا البراندي السوفييتي على نخب المناسبة[6]، ولكن هذا النجاح لم يدم طويلًا؛ فبعد عام واحد توحدت ألمانيا في أكتوبر/تشرين الأول عام 1990م، وقَبِل زوتشولد عرضًا لمنظمة العفو الدولية، ولم يكشف فقط عن تجنيد نفسه، ولكنه عرَّض خمسة عشر عميلًا آخرين للخطر كانوا يعملون في شبكة دريسدن في الـ(كي جي بي)[7].

خيانة العملاء أغضبت المقدَّم بوتين، كما أغضبه الاستيلاء على مجموعة هائلة من ملفات جهاز أمن الدولة من قبل المخابرات الألمانية الغربية، ونشرها على الملأ، لتُكشَف من ثَم أنشطة الـ(كي جي بي). وقد قال- في وقت لاحق- لصديقه القديم سيرجي رولدغن إن جهاز أمن الدولة ما كان له أن يسلم أرشيفه؛ لأن في ذلك خيانة لأولئك الذين عملوا معه مخبرين. نادرًا ما سمعه رولدغن يتحدث عن عمله، ونادرًا ما شاهده عاطفيًّا، استذكر رولدغن: «قال إن ذلك يساوي الخيانة، وكان مستاء جدًّا جدًّا، وأحس كذلك بالخجل والندم؛ فقد كان عاجزًا عن مساعدة رفاقه الألمان مع تهاوي عالمهم السري الخاص بهم». وقال لرولدغن: «شعرت وكأنها غلطتي أنا»[8].

في فبراير/شباط 1990م، ازدحمت شقة بوتين المتواضعة بالصناديق المعبأة؛ كل صندوق كتب عليه اسمه ورقمه، حتى بدت الشقة مثل غرفة تخزين. كان الـ(كي جي بي) قد انسحب، وتلاه انسحاب الجيش السوفييتي، وفجأة أخليت المساكن في دريسدن، وإذ كان لزوجة الشاب جورج هوفمان اتصالات بإدارة المدينة، فقد تمكن من الحصول على عقد

إيجار الشقة. وقف المستأجر ينظر إلى الشقة في حين انتظر بوتين وعائلته عمال الإخلاء. كانت الجدران مغطاة بورق المونيوم، وزينت النوافذ بقواطع من دمى التعشيش الروسية التي صنعتها الفتيات.

أظهر بوتين التهذيب والود، ولم يبد أي إحساس بالخذلان أو بمرارة المنسحب، أو غيرها من المشاعر، واكتفى بأن قال لهوفمان إنه عائد إلى بلاده[9]. وفي 1 مارس/آذار انتقلت أسرة هوفمان إلى الشقة.

في السنوات الأربع والنصف تمكن بوتين من توفير بعض العملة الصعبة التي حصل عليها، وكان جارهم أعطاهم غسالة مضى عليها عشرون عامًا، لكنها عملت خمس سنوات أخرى[10]، وهذا كل ما كسبه من مهنته بصفته ضابط استخبارات أجنبية. عُبئت ممتلكاتهم في حاوية شحن لإرسالها إلى موسكو، في حين ركب الزوجان وابنتاهما الصغيرتان القطار، واتجهوا أيضًا إلى موسكو، وفي رحلة العودة سرق لص معطف ليودميلا وما تحمله من روبلات وماركات[11].

كان بوتين وأسرته يتابعون عن بعد الاضطراب في عهد جورباتشوف، والاهتياج العام الذي خلَّفته البيروسترويكا والجلاسنوست، ولكن كل سوء توقعوه لم يجدوه لدى عودتهم، وكان ذلك محبطًا بالنسبة إليهم؛ فبعد الراحة النسبية التي تمتعوا بها في ألمانيا الشرقية، بدت الحياة في المنزل صادمة لهم، وقد أشارت ليودميلا إلى ذلك بقولها: «عدنا إلى المنوال الرهيب نفسه؛ البطاقة التموينية، والكوبونات، والرفوف الفارغة»[12]، كانت تخشى الذهاب إلى المتجر، وغير قادرة على «سماع المساومات، والوقوف في جميع الخطوط. كنت أتجه إلى أقرب متجر، وأشتري ما هو ضروري، وأعود إلى البيت، لقد كان أمرًا مروعًا». افتقدوا الروح الفكرية والسياسية التحررية في ذلك العهد، ونشر الأفلام المحظورة والروايات المراقبة سابقًا مثل المعلم ومارغريتا، تحفة ميخائيل بولجاكوف التي يتخيل فيها زيارة الشيطان لموسكو، أو بوريس باسترناك في كتابه **الدكتور جيفاكو**. الحرية الجديدة في القراءة،

والحوار، والتفكير العلني، تملكت عقول كثيرين، لكنهم عادوا إلى روسيا في اللحظة التي بدأت تتكشف فيها الإصلاحات واللبرلة التي دعا إليها جورباتشوف[13].

شعرت ليودميلا أن زوجها «فقد الاتصال بالهدف الحقيقي لحياته»[14]، وأصبحت مهنته ضابطًا في الـ(كي جي بي) على مفترق طرق. ولاحقًا انضم إلى تجمع رجال الاستخبارات الخارجية العائدين إلى الوطن، ليسوا العائدين فقط من ألمانيا، ولكن من كل أوروبا الشرقية وغيرها من ساحات القتال النائية والبعيدة في الحرب الباردة؛ مثل أفغانستان وأنغولا ومنغوليا وفيتنام ونيكاراغوا واليمن؛ فقد هزموا، واكتأبوا، وأصبحوا بلا عمل فعليًّا، وباتوا لاجئين نازحين من الإمبراطورية المتداعية. وكان المركز في موسكو الوجهة النموذجية للضباط العائدين من مراكزهم في الخارج، مع أنه لم يعد أي شيء نموذجيًّا بعد الآن.

في بداية عام 1990م، ومدة ثلاثة أشهر، لم يتقاضَ بوتين راتبه الشهري. عرضت الـ(كي جي بي) في البداية وظيفة له في مقر رئيس المديرية الأولى في ياسينيفو المكتظة بالأشجار، والمجمع الذي يخضع لحراسة مشددة جنوب غربي موسكو؛ فرتبته وتعيينه تؤهله لتسلم شقة في موسكو، لكن الشقة غير متوافرة بسبب العدد الكبير من قدامى الاستخبارات الباحثين عن منازل، وكان عليه أن ينتظر، ربما سنوات.

ليودميلا تحب موسكو، وتريد الانتقال إلى هناك، وهو يعي أن جميع الفرص لترقيته موجودة في العاصمة وليس في لينينجراد، ولكن شكوكه الغامضة حول مستقبل الاتحاد السوفييتي أخذت بالتعاظم، وبعد خمسة عشر عامًا، أصبحت سيرته المهنية غير منظورة، ولم تعد ملهمة له. في سنته الأخيرة في دريسدن لمس الفوضى في أجهزة السلطة، وانهيار الانضباط، وانتشرت السرقة والفوضى داخل صفوف حزبه.

التقى المدير القديم للقاعدة ومعلمه، العقيد لازار ماتفييف، الذي حطَّت به الرحال في ذلك الوقت في ياسينيفو، وفي شقة ذلك العقيد الأشيب في موسكو قال له: «لا أعرف ما يجب فعله»، فلم يفعل ماتفييف- بكل ما يحمله من حب لتلميذه السابق- شيئًا لإقناعه بالبقاء في

موسكو، أو حتى في الـ(كي جي بي)، ولكنه قاله له بإخلاص: «تحدث مع ليوديا في الأمر. اذهبوا إلى لينينجراد»[15]؛ فهناك على الأقل شقة يمكنهم العيش بها مع والديه. وكان بوتين الأب وزوجته قد انتقلا إلى مكان أكبر، وهذه المرة في سريدنيوختنسكي بروسبكت، غير بعيدة عن الأكاديمية التي تدرب بها فلاديمير أول مرة بعد التحاقه بـ (كي جي بي). لذلك قبل وظيفة مساعد رئيس الجامعة للشؤون الدولية في جامعته القديمة، وهو موقع في الـ (كي جي بي) يهدف إلى إبقاء العين على الطلاب والزوار، وهو ذو طابع (تجسسي) في نهاية المطاف، مع أن هوية المسؤولين الحقيقية في مواقع كهذه لم تعد سوى سر مفضوح ومعروف؛ فليس صعبًا أن يعرف الناس الأماكن التي تتربص بها الـ (كي جي بي) في كل مكان.

ثم التحق بما كان أوليج كالوجين، النائب السابق لمدير الـ(كي جي بي) في لينينجراد، قد وصفه بأنه «الهيكل الهرمي الهائل السخيف، هذا الجهاز المركزي المخيف، هذا الدين الذي سعى إلى السيطرة على جميع جوانب الحياة في بلادنا الشاسعة»[16].

رئيس الجامعة، ستانيسلاف ميركورييف، هو عالم الفيزياء النظرية الذي عُيِّن في وقت مبكر من ولاية جورباتشوف، ويتحدث الإنجليزية والألمانية والفرنسية، كان مصممًا على فتح النظام الخانق للتعليم العالي، وقبل وفاته بوقت قصير في عام 1993م كان قد حصل على استحسان لجعل الجامعة إحدى أفضل الجامعات في أوروبا[17]، وأحاط نفسه بمحترفين من أمثاله، وكما يعرف بكل تأكيد أنه بات آخر مفكر من الـ(كي جي بي). بالنسبة إلى الهرم في مثل سنه المخضرم الذي أمضى حياته في الـ (كي جي بي)، قد تكون الوظيفة الجامعية مريحة وسهلة، ولكنها بالنسبة إلى مقدَّم في السابعة والثلاثين من العمر لا تزال تنتظره سنوات من الخدمة، تبدو طريقًا مسدودًا، والاحتمال ضئيل اليوم بتأمين وظيفة أخرى له في الخارج؛ فالـ(كي جي بي) بدأت تتقلص في حجمها، وإنجازاته لا تكاد تستحق هذا المنصب، وسيرته في الاستخبارات الأجنبية من ثم وصلت إلى خاتمتها، ولا يمكن حتى لماتفييف أن يمد يد العون لينتشله.

أخبر سيرجي رولدغن أنه يعتزم ترك الـ(كي جي بي) تمامًا، ولكن رولدغن راودته الشكوك، وقال: «ما من شيء يسمى وكيل مخابرات سابقًا». فقد تعاطف مع غضب صديقه وارتباكه، لكنه يفهم عقليته أيضًا؛ «يمكنك التوقف عن العمل في هذه المنظمة، ولكن نظرتها إلى العالم، وطريقة تفكيرها، ستبقى عالقة في رأسك»[18].

كانت لينينجراد قد تغيرت ظاهريًّا قليلًا، لكن البيروسترويكا نفخت حياة جديدة في السياسة في المدينة، ففي مارس/آذار 1989م، حين كان بوتين وأسرته لا يزالون في دريسدن، عقدت المدن في مختلف أنحاء الاتحاد السوفييتي أول انتخابات تنافسية في تاريخ البلاد لاختيار ممثلين لشبه البرلمان الجديد: مؤتمر نواب الشعب، وبدلًا من المصادقة تلقائيًّا على قادة الحزب الشيوعي، كما كانت الانتخابات السوفييتية دائمًا، تمرَّد الناخبون في لينينجراد، ورفضوا المرشحين الخمسة الكبار، ومن ضمنهم زعيم الحزب في المدينة، يوري سولوفييف. وبدلًا منه أُنتُخب أستاذ طويل القامة، ذو شخصية كاريزمية، وأستاذ في القانون في الجامعة التي تخرج فيها فلاديمير بوتين: أناتولي سوبتشاك، المولود في أعماق سيبيريا، والذي تلقى تعليمه في لينينجراد، واكتسب مكانته من كونه ناقدًا للنظام السوفييتي، وكتب كثيرًا داعيًا إلى إصلاحات السوق، وسيادة القانون، وقد رُفضت أطروحته في الدكتوراه لكونها غير صحيحة سياسيًّا، وقد رشحه زملاؤه في كلية الحقوق على نحو غير متوقع ليكون واحدًا من أربعة مرشحين من منطقة الجامعة في جزيرة فاسيليفسكي التي تضم حوضًا لبناء السفن في منطقة البلطيق المترامية الأطراف، وآلاف الشركات لبناء السفن وتحميلها وتفريغها.

وعلى الرغم من جهود الحزب الشيوعي لحجب مرشحي المعارضة، فإن سوبتشاك تمكن من الحصول على المركز الثاني في التجمع السياسي الذي أقيم في قصر الثقافة الواقع في حوض بناء السفن، وذلك بعد إلقائه الخطاب الارتجالي في وقت متأخر من الليل، مستحضرًا كلمة الملك مارتن لوثر: «حلمت بالوقت الذي تصبح فيه دولتنا محكومة بالقانون؛ الدولة التي

لا تسمح بمنح الحقوق والامتيازات لبعض الناس على حساب الآخرين»، كما كتب في وقت لاحق[19].

على الرغم من أنه ليس لديه خبرة انتخابية، فقد ألقى سوبتشاك بنفسه في السياسة، وكان يعتقد- مثل جورباتشوف- أن النظام السوفييتي قد يتغير مع الإصلاحات، لكنه وجد نفسه والبلد غير مستعدين للحداثة الديموقراطية بعد عقود من الخوف والشك التي كان المجتمع السوفييتي قد خرج منها. خصوصيات النظام- فرض الحكومة، والإسكان، وحتى الإجازات- تعني أن معظم الناس يعيشون ويعملون داخل دائرة اجتماعية ضيقة، ويضمرون التشكيك بأي شخص خارج هذه الدائرة؛ حتى كانت عبارة: «لا تتحدث إلى الغرباء مطلقًا»، العبارة الشهيرة التي وردت في **المعلم ومارغريتا**، هي شعارَ الإخلاص في الاتحاد السوفييتي.

عاش سوبتشاك- باعترافه- حياة مريحة في أوساط المثقفين، و«مقيدة على نحو متزايد»، وعندما انطلق بحملته الانتخابية خارج محيطه، اكتشف قلة المعرفة لديه عن كيفية عيش الناس العاديين[20]. وما إن فاز في الانتخابات حتى خلق انطباعًا جيدًا عنه؛ إذ عقد الكونغرس لنواب الشعب في ربيع عام 1989م، فانضم إلى كتلة من المشرعين الإصلاحيين شملت: الفيزيائي المنشق أندريه ساخاروف، وبوريس يلتسين مسؤول الحزب الذي أصبح السكرتير الأول في موسكو، وأرهب القيادة السوفييتية والجيش والـ(كي جي بي) بحماسته وغطرسته، في جلسات الاستماع العلنية التي تبث في أرجاء البلاد الشاسعة.

رَأَس سوبتشاك التحقيق في مقتل عشرين شخصًا خلال مظاهرة ضد السوفييت في 9 أبريل/نيسان في تبليسي، عاصمة جورجيا، وفضح كذب الرواية الرسمية للحملة العسكرية هناك، وكانت اضطرابات عام 1989م قد امتدت لتشمل الاتحاد السوفييتي نفسه، مع اضطرابات ليتوانيا، وأذربيجان، وأرمينيا، وعلى الرغم من جهوده المضنية لاحتواء الوضع فإن السلطات السوفييتية لم يعد لديها عمليًّا ما يكفي من القوة للإبقاء على تماسك النظام[21].

وبعد شهر من عودة بوتين وأسرته انتخبت لينينجراد مجلس مدينة جديدًا، وفاز الإصلاحيون والمستقلون فوزًا كان كافيًا لكسر احتكار الحزب الشيوعي للسلطة البلدية. كان المشرعون الجدد جادين، ولكنهم لم يكونوا متمرسين، وكانوا غير منظمين، وتنقصهم مواصفات القادة، وقد ناشدت كتلة منهم سوبتشاك لشغل أحد المقاعد الخمسة والعشرين المتبقية، وفي حال فوزه ينافس على منصب رئيس المجلس. كانت أهمية سوبتشاك في الكونغرس لنواب الشعب في موسكو نابعة من الآمال بأنه سيكون الزعيم الذي سيوحد المدينة. وقد فاز بانتخابه، وفي مايو/أيار أصبح رئيس المجلس، والمسؤول الكبير المنتخب في المدينة.

سوبتشاك «جسد الانتقال إلى صورة جديدة من الحكومة»، على حد وصف أحد المؤرخين ذلك، حيث انتصر الأمل على المنطق[22]، فقد كان باحثًا قانونيًّا، وليس مسؤولًا سياسيًّا، ومن ثم فمهما تمتع بشخصية كاريزمية فإن الخبرة تنقصه ليحكم مدينة يقطنها خمسة ملايين نسمة، ولا سيما في وقت تشهد فيه اضطرابات سياسية، وتحكمها بيروقراطية عاتية يسيطر عليها الشيوعيون.وعليه؛ كان سوبتشاك بحاجة إلى الحلفاء والخبرة، ولذلك التفت إلى مؤسسة واحدة كان يعتقد أنه يمكن أن يجد فيها المساعدين الأكفياء القادرين على قيادة ما أصبح يعرف بالانتقال السياسي المفاجئ؛ التفت إلى المؤسسة التي ندد بها من منصة مؤتمر نواب الشعب؛ إلى الـ(كي جي بي).

بعد وقت قصير من توليه منصبه الجديد، اتصل أوليج كالوجين هاتفيًّا بسوبتشاك، وهو مسؤول التجسس السابق الذي تعرض لدسيسة من (كي جي بي) بعد خدمته في الاستخبارات الخارجية، وتُرك على إثرها في (المنفى الداخلي) في لينينجراد، وكان كالوجين قد انضم إلى صفوف الإصلاحيين الديموقراطيين، وأصبح واحدًا من أبرز المنتقدين لوكالته السابقة، وبذلك فقد وجد سوبتشاك من يبحث عنه، فهل يمكن أن يوصي بشخص داخل الـ (كي جي بي) ويثق به فيعينه مستشارًا؟

كان متشككًا من البيروقراطية، وبحاجة إلى اتصال مع قوات الأمن، فاقترح كالوجين ضابطًا كبيرًا، برتبة ملازم عام يثق به، لكن سوبتشاك استبعد هذه الفكرة؛ إذ كان يساوره القلق من أن تحالفًا مع الـ (كي جي بي) الخارجية قد يشوه مؤهلاته الديموقراطية، ومن ثم أراد شخصًا أقل بروزًا. وبعد أيام قليلة، اتصل به سوبتشاك مرة أخرى، وسأله كالوجين هل سمع عن ضابط شاب يدعى فلاديمير بوتين[23].

يرى بعضهم أن للـ(كي جي بي) يدًا في توجيه الضابط الشاب إلى مكتب سوبتشاك، ولكن وفقًا لكالوجين فإن سوبتشاك هو الذي جنَّده. أما فلاديمير بوتين فيتذكر سوبتشاك من محاضراته في كلية الحقوق، ولكن لا يعرفه جيدًا. وفق تفسيره الخاص، فقد كان له صديق في كلية الحقوق اقترح عليه أن يذهب ويرى سوبتشاك، وهو ما فعله بقلق؛ فمن الصعوبة أن يتفق مع بعض انتقادات سوبتشاك الكثيرة للـ(كي جي بي)، كما أن المستقبل السياسي لسوبتشاك ضعيف في أحسن الأحوال، مثل أي شيء في الاتحاد السوفييتي في عام 1990م، وعلى الرغم من ذلك ذهب، في شهر مايو/أيار، إلى مكتب سوبتشاك الجديد في قصر ماريانسكي، ووظفه سوبتشاك على الفور، وأخبره أنه سيرتب نقله للعمل مع ميركوروييف، وأن يباشر عمله يوم الاثنين المقبل. هناك وجد بوتين نفسه مضطرًا إلى أن يكشف عن مهنته الفعلية؛ فقال لسوبتشاك: «لا بد لي أن أقول لكم إنني لست مجرد مساعد لرئيس الجامعة، فأنا ضابط منتظم في الـ(كي جي بي)».

وحسب ما يذكر بوتين، فإن سوبتشاك تردد وقتها، وكانت مفاجأة لبوتين حين صرف النظر عن هذه المسألة، قائلًا له: «لا ضير في ذلك!»[24].

أصر بوتين أن عليه أن يبلغ رؤساءه، وإذا لزم الأمر فإنه سيستقيل من الـ(كي جي بي)، ويذكر أصدقاؤه أن اتخاذ هذا القرار تسبب له بألم كبير؛ فالـ (كي جي بي) هي المؤسسة التي خدمها بإخلاص، ولكن ظنه خاب؛ فكل تلك المخاوف التي كانت تجول في صدره من

رد فعل المركز بدت في النهاية في غير محلها؛ إذ كانت الـ (كي جي بي) سعيدة أن ترى أحد ضباطها يعمل على نحو سري في مكتب النجم السياسي الصاعد في لينينجراد.

مثلت هذه التجربة الديموقراطية الجديدة- بعد كل شيء- شيئًا خطيرًا يتطلب اليقظة الدائمة؛ وهكذا بقي المقدَّم بوتين في الخدمة بمباركة من الـ(كي جي بي)، وربما بإصرار منها، يتسلم راتبه الضئيل والثابت، وهو أكثر مما حصل عليه من عمله مستشارًا لسوبتشاك، وبات يعيش اليوم حياة مزدوجة؛ حياة عميل سري لكن داخل بلده، وبدأ بتقديم المشورة لسوبتشاك، واستمر في العمل في مكتب صغير في الطابق الأول من مبنى الاثنا عشر في الكلية الحمراء والبيضاء في الجامعة؛ مهمته هناك مراقبة الطلاب والزوار الأجانب الذين يصلون بأعداد متزايدة، بعد أن خففت الجلاسنوست القيود المفروضة على السفر. ولم يعد يعمل في البيت الكبير في لايتيني بروسبكت، لكنه ظل يزوره في بعض الأحيان، ولأغراض يمكن أن تنحصر فقط في الحفاظ على علاقته برؤسائه، وإخبارهم بالسياسة المتغيرة يوميًّا في الجامعة ومكتب سوبتشاك.

عندما وصل وفد من سانت بطرسبورغ من كلية المجتمع في ولاية فلوريدا في خريف عام 1990م للتبادل التعليمي، كان العقيد هو الذي استضافهم، واستضاف رئيس الكلية الموثوق به، كارل كوتلر.

التقى كوتلر مستشار بوتين في الجامعة، فاليري موسين، عندما زار ولاية فلوريدا، واقترح إقامة روابط بين المدينتين والجامعتين. وعندما وصل كوتلر والوفد المرافق له، اجتمع بوتين بهم في المطار، وأمضى عشرة أيام يرسم جميع الترتيبات لاجتماعاتهم؛ من وجبات الطعام، إلى الحفلات الموسيقية السيمفونية والباليه، وقد فعل ذلك بدقة في المواعيد والكفاءة التي فاجأت كوتلر، على الرغم من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المدينة، ولا سيما النقص الحاد في البنزين، الذي أنتج طوابير طويلة تبعث على الإحباط، وعندما ذهب كوتلر في رحلة

خارج المدينة، كادت السيارة الحكومية الليموزين تقع في خطر نفاد الوقود، فتدخل بوتين بتوجيه السيارة إلى قسم الصرف الصحي في المدينة، حيث يمكن تزويدها بالوقود اللازم.

بدأت حياته المهنية المزدوجة تتقاطع على نحو متزايد، وقد عرف كوتلر بسوبتشاك، وخلال مأدبة في الليلة الأخيرة طلب سوبتشاك من كوتلر أن يقدم له خدمة قائلًا: «كارل، هل لك أن تسدي لي خدمة؟ ليس لدينا كثير من المال للسفر»، وكان سوبتشاك حينها قد بدأ يفكر في السفر خارج البلاد ويريد العودة مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، «هل تدفع ثمنها؟»[25].

قدم كوتلر المال لسوبتشاك الذي سافر بعد شهر، وفي واشنطن التقى الرئيس جورج إتش دبليو بوش، وكبار قادة الكونغرس، ونقلت شركة بروكتر وغامبل وفد سوبتشاك إلى كليفلاند ليوم واحد، ومكث في ولاية فلوريدا في منزل كوتلر على الخليج، حيث تعجب من القيود البيئية التي تمنع قطع شجرة واحدة دون الحصول على إذن من السلطات البلدية[26]. استفاد بوتين من رحلة أمريكا إذ قرر سوبتشاك ترقيته ليصبح موظفًا دائمًا في عام 1991م. وقد تذكر سلوك كوتلر في المأدبة؛ فعندما جاء وقت الرد بالمثل على النَّخْب، طلب كوتلر من الضيوف المدهوشين عقد اليدين، وتلا صلاة: «صلوا لجامعتنا»، فذكَّره بوتين أنه حين التقيا قبل عقد من الزمان: «صليتم لجامعتنا، وصليتم لمدينتنا، وصليتم لبلدنا، وصليتم لي»، وشكك كوتلر أن يكون مساعد الجامعة الشاب قد سمع صلاة من ناحيته، ولم يتصور أن مضيفه ضابط في الـ(كي جي بي)[27].

أصبح مستقبل المقدَّم بوتين اليوم مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا برجل يميل إلى الاقتباس من الشعراء الكلاسيكيين، وبما نطقوا به ذات مرة من إبداع. «نحن جميعًا مصابون بعدوى النظام إلى حد ما»، هذا ما كتبه سوبتشاك بعد عام واحد، وبعد أن أصبح لديه مستشار، مستذكرًا كتاب **الفارس البرونزي** لبوشكين، وما أسماه (متلازمة النظام): «منذ ولادتنا تعلمنا التعصب والشك والخوف الشديد من الجواسيس». كان سوبتشاك يتصور اتحادًا

سوفييتيًّا جديدًا يقدم العدالة والأمل والديموقراطية، «دولة طبيعية وحضارية لا تحتاج أن تذبح نصف سكانها لجعل النصف الآخر سعيدًا»[28].

الرجلان كانا ثنائيًّا غريبًا؛ فهما يختلفان في العمر، وفي المزاج، وفي الفلسفة؛ فقد كان سوبتشاك شخصية كاريزمية وثابة، وكان بوتين محافظًا، شكاكًا بطبيعته، وكتومًا ملتزمًا السرية، وهو مع أنه لا يشارك سوبتشاك العداء للاتحاد السوفييتي، فإنه اشتغل لرئيسه الجديد بإخلاص كما لو كان أحد قادة الـ (كي جي بي)، ومع الزمن بدأ استيعاب بعض من آرائه.

وعلى الرغم من استقالة ضباط آخرين في المخابرات، من حيث المبدأ، أو سعيًا وراء طرق جديدة لكسب المال، ظل بوتين محافظًا على رهاناته؛ لم يقطع الطرق مع الوكالة كما فعل كالوجين، ولم يندم على خدمته، ولن يندم أبدًا. قال أحد رؤسائه في لينينجراد الذين خدموا أيضًا في ألمانيا الشرقية، يوري ليشتشيف، إن خدمة الـ(كي جي بي) بالنسبة إلى بوتين كانت «عملًا مقدسًا»[29]. وقد سحبه سوبتشاك عميقًا للانخراط في السياسة الجديدة للعصر، فكان يعمل لحساب النظام السابق، ومع أولئك الذين انقلبوا عليه.

أثبتت الديموقراطية في مجلس مدينة لينينجراد أنها ما تزال غير ناضجة؛ إذ لم يتوقف أعضاؤه عن التشاجر بعضهم مع بعض، ومع سوبتشاك، على صلاحيات الرئيس، ولم يقدموا إلا قليلًا لتلبية الاحتياجات الملحة للمدينة؛ من إسكان وإطعام ونقل.

وفي صيف عام 1990م كان الاقتصاد السوفييتي يترنح على حافة الانهيار، ولينينجراد ومدن أخرى بدأت تنفد فيها المواد الغذائية الأساسية؛ وأفرغت رفوف مخازنها الضئيلة الأولى من الشاي والصابون، ثم السكر والسجائر، حتى الفودكا. وبعد عودة سوبتشاك من الولايات المتحدة بمدة وجيزة، حيث زار مخزن كمارت المتميز بتخزينه الجيد في إسكندرية فيرجينيا، أَجْبَر المجلس على إدخال البطاقات التموينية، ولم تكن المجاعة قاسية بسبب السوق السوداء المزدهرة، وإنما بسبب التقنين الذي استحضر الذكريات المرعبة للحصار،

وقد قال سوبتشاك دفاعًا عن الخطة: «الديموقراطية تواجه شتاء جائعًا، ومن المهم أن تبقى الديموقراطية على قيد الحياة في هذا الشتاء»[30].

بحلول ذلك الوقت بدأت الـ(كي جي بي) والقادة العسكريون السوفييت بوضع خطط طوارئ لفرض الأحكام العرفية، وفي يناير/كانون الثاني 1991م، أمر جورباتشوف الجيش باستعادة الحكم الشيوعي في ليتوانيا بعد أيام من الاحتجاجات، ناقضًا إعلان الجمهورية الاستقلال في العام قبل الماضي، وقد ترافق الهجوم بهجوم الدبابات على برج التلفاز في العاصمة فيلنيوس، وقتل أربعة عشر شخصًا، لكن ظل قادة ليتوانيا يتحدَّون موسكو مع الضغط قدمًا لإجراء استفتاء على الاستقلال في فبراير/شباط، الذي أعلن جورباتشوف أنه غير قانوني.

في يونيو/حزيران أجرت روسيا الانتخابات الرئاسية الخاصة بها، وأصبح بوريس يلتسين المنتخب شرعيًّا للحكم الثقل الموازي لحكم جورباتشوف الذي يعاني على نحو متزايد من عدم الانتظام وعدم الشعبية. وفي الشهر نفسه، استفاد سوبتشاك من الانتخابات الوطنية ليفوز بانتخابات السلطة التنفيذية المنشأة حديثًا التي ستمارس السلطة على مجلس المدينة التشريعي غير الفاعل، وكان المجلس، قبل شهر من ذلك، قد اضطر إلى استحداث منصب رئيس البلدية، وكان هو الوحيدَ المؤهل للفوز به. وكان أعضاء المجلس على نحو متزايد يرفضون أن يكون سوبتشاك رئيسًا لهم، وكانوا يأملون أنهم بإنشاء فروع منفصلة للحكومة، يمكن أن يقيدوا صلاحياته بصفته قائدًا في المدينة. أجرت لينينجراد أيضًا استفتاء غير ملزم لاستعادة اسم المدينة قبل الثورة؛ سانت بطرسبورغ، ومع أن سوبتشاك قد عارض التغيير في البداية، لكنه قاد حملة لاستعادة اسم المدينة بدهاء وكياسة، ووصف التغيير بأنه التطور الطبيعي لرؤية بطرس الأكبر في المدينة لكونها «نافذة على أوروبا»، وعرض إزالة جثة لينين من الساحة الحمراء ودفنه مع أقاربه في لينينجراد، وذلك تماشيًا مع آخر رغبة ووصية للثورة، وقد لاقى عرضه قبولًا واحترامًا من أولئك الذين ما زالوا يبجلون لينين، واسترضى أولئك الذين يريدون وضع حد لعبادة الفرد التي لا تزال تحيط به[31]، ولما جاءت الانتخابات،

فاز سوبتشاك بـ 66 في المئة من الأصوات، في حين صوتت الأغلبية الأقل 54 بالمئة لتغيير اسم المدينة[32].

لم يمارس فلاديمير بوتين أي دور في سياسة انهيار الاتحاد السوفييتي، فلم يستحق أي ظهور في المذكرات المعاصرة وتاريخ الأحداث الجسام لعام 1991م، ولا حتى في مذكرات سوبتشاك التي كتبت في العام الذي بدأ فيه بوتين العمل معه. ظل الموظف الشاب، الذين اعتاد على العمل على قدر رتبته، وفي الظل، على ولاءاته وتوكله على القدر، على الرغم من أنه بات الآن برفقة زعيم المدينة السياسي بلا منازع، الذي يذكره كثيرًا بأنه سيكون على الأغلب الرئيس المستقبلي لكل روسيا.

بعد انتخابات سوبتشاك أنهى بوتين عمله في الجامعة، وفي يونيو/حزيران 1991م التحق بفريق البلدية بصفته رئيسًا للجنة الجديدة للعلاقات الخارجية في المدينة، جاعلًا من نفسه الشخص الذي لا يستغنى عنه؛ فهو هادئ، وحصيف، وشديد الحضور، ويعمل في مكتب قليل التأثيث، وكان يعمل بلا كلال، وبكفاءة و«تصميم لا يلين»، كما وصفه أحد زملائه، وحصل على لقب غير مؤثر (ستاسي) فقط لخدمته في ألمانيا الشرقية[33].

لم تنس الـ (كي جي بي) ضابطها في صفوف سوبتشاك، وفي إحدى الأمسيات شوهد زملاء بوتين في مكتبه بعد أن ذهب سوبتشاك في رحلة، وترك لمساعديه ثلاثة أوراق فارغة، كل منها موقعة وممهورة بتوقيعه، لاستكمال أعمال البلدية المتنوعة، وقد يكون هذا اللقاء محض مصادفة وربما غير ذلك. الضباط الذين جاؤوا إليه أرادوا أحدهم لفعل شائن، وهذ الشخص لم يعرف، أو ربما لم يخبره أحد؛ «ألا ترون أن هذا الرجل يثق بي؟» ذلك ما ادعى بوتين في وقت لاحق أنه أجابهم به، وأراهم الملف وبداخله الأوراق[34]، وكان رفض بوتين لطلبهم قطعيًّا، لكنهم هم أيضًا لم يصروا، بل ببساطة اعتذروا وغادروا.

في 17 أغسطس/آب 1991م ذهب بوتين وعائلته في إجازة، متجهًا بسيارته إلى كالينينجراد للبقاء في منتجع على كورونيان سبت، وهو هلال ضيق من الشواطئ والكثبان

والغابات على بحر البلطيق[35]، في حين كان سوبتشاك يقضي عطلة نهاية الأسبوع في ليتوانيا لمناقشة رؤيته لاتفاقية التجارة الحرة، ثم انتقل جوًّا إلى موسكو، ليلة 18 أغسطس/آب، للمشاركة بعد يومين في التوقيع على معاهدة الاتحاد الجديدة التي ستحل على نحو فعال الدولة السوفييتية المركزية. وكان ميخائيل جورباتشوف، وبوريس يلتسين، وزعيم الحزب في كازاخستان، نور سلطان نزاربابيف، قد تفاوضوا سرًّا على اتفاق لنقل مهام الحكومة المركزية إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الفردية، وهو ما يضعف إلى حد كبير من السلطة المركزية للكرملين.

لكن الحفل لم يجر قط؛ ففي تلك الليلة، وداخل الكرملين، كانت مجموعة من المتشددين قد بدأت بالفعل بحركة انقلاب، ووضع جورباتشوف تحت الإقامة الجبرية في منزله المخصص للعطل والإجازات في شبه جزيرة القرم، وأنشئت لجنة الدولة لحالة الطوارئ، شملت قادة الانقلاب ونائب الرئيس جورباتشوف جينادي يانايف، والوزير الأول، ووزراء الدفاع والداخلية، وفلاديمير كريوتشكوف الرئيس السابق للاستخبارات الأجنبية واليوم رئيس الـ(كي جي بي). وصدرت الأوامر الرسمية للجيش والمخابرات بالتحرك والسيطرة في الساعة الرابعة من صباح 19 أغسطس/آب.

استمع بوتين وعائلته إلى الأخبار بالطريقة نفسها التي استمعت بها معظم البلاد، أولًا من خلال سلسلة من الإعلانات الإذاعية، وبعد ذلك في النشرات الخاصة على التلفاز الرسمي حيث توقف بث **بحيرة البجع**. أما سوبتشاك فقد استيقظ في غرفة فندقه في موسكو عندما اتصل به هاتفيًّا صديق من كازاخستان ليعلمه بالخبر، وقد تدفقت الدبابات وقوات المظليين في عربات مدرعة إلى شوارع موسكو. ذهب سوبتشاك، ومعه الحرس والسائق، إلى منزل يلتسين الريفي، للانضمام إلى قيادة البرلمان الروسي المنتخب حديثًا لتنظيم المقاومة، وكان اسم سوبتشاك، ومثله يلتسين، على لائحة مذكرة الـ(كي جي بي) لتوقيفهم، ولكن الاعتقالات لن تبدأ بتاتًا. حث يلتسين سوبتشاك على العودة إلى لينينجراد وقيادة المعارضة

للانقلاب من هناك، فوصل سوبتشاك مع حارس وحيد إلى مطار شيريميتيفو وحجز على الرحلة المقبلة المقررة إلى لينينجراد. مدبرو الانقلاب، على الرغم من إعلانهم حالة الطوارئ، سمحوا للحياة أن تسير كالمعتاد أو أقل قليلًا، ومن ذلك السفر الجوي الروتيني، وكان الضباط الثلاثة في المخابرات الذين التقوا به في صالة المطار ولديهم أوامر لإلقاء القبض عليه، عصوا الأوامر وانتظروا معه حتى استقل رحلته، هذا ما ذكره سوبتشاك، معقبًا: «وهكذا أصبح لدي اليوم أربعة حراس، ثلاثة منهم بمدافع رشاشة»[36]، وتحول الانقلاب الذي خشي الإصلاحيون من حدوثه منذ مدة طويلة إلى مهزلة.

في لينينجراد تلقى القائد العسكري في المدينة، العقيد الجنرال فيكتور سامسونوف، أيضًا أوامر لنشر القوات، وذهب إلى التلفاز في الساعة العاشرة من صباح يوم الإعلان عن حالة الطوارئ، وحظر أي تظاهرات وتجمعات عامة، وحل جميع الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية التي ظهرت مثل الفطر في العامين السابقين، وأعلن تشكيل لجنة طوارئ تحل محل حكومة المدينة المنتخبة حديثًا، وضمت اللجنة العسكرية المحلية قادة الـ(كي جي بي)، وزعيم الحزب الشيوعي الجديد، بوريس غيداسبوف، وكان اسم سوبتشاك غائبًا بوضوح، ولكن ليس هذا من الأدميرال البحري فياتشيسلاف شيشرباكوف الذي اختاره سوبتشاك نائبًا له، ومن ثم نائب عمدة لاحقًا؛ فهو أيضًا كان في منتجع على البحر الأسود، وبعد عودته إلى لينينجراد تنصل من أي تورط له في الانقلاب. وفي الوقت الذي كان فيه سوبتشاك على متن رحلته مغادرًا موسكو ليصل في الساعة الثانية، لم تكن أي قوات قد دخلت المدينة، ولم ينفذ قرار الجنرال سامسونوف.

أرسل قائد شرطة المدينة، أركادي كراماريف، سيارة أقلَّت سوبتشاك مباشرة إلى مقر قيادة الجيش في ساحة القصر، مقابل الأرميتاج، حيث تجتمع لجنة الطوارئ في لينينجراد. كان كراماريف هناك حقًّا، يرفض علنًا أوامر سامسونوف بإخلاء الشوارع من المحتجين الذين بدؤوا يتجمعون أمام مقر مجلس المدينة في قصر ماريانسكي.

انفجر غضب سوبتشاك، واتهمهم بتدبير مؤامرة غير قانونية ستؤدي إلى «نورمبيرغ خاصة بهم»، متجاهلًا غيداسبوف، رئيس الحزب الذي أراد أن يحل محله قائدًا للمدينة، وركز غضبه- بدلًا من ذلك- على الجنرال سامسونوف، وأشار إلى جرائم بعض القادة العسكريين الذين استخدمهم قادة حزبيون فاسدون أو مجرمون في الحزب، من ذلك عمليات القتل في جورجيا التي حقق بها.

بصفته رجل قانون، رفض شرعية أوامر الجنرالات حول الشيء التقني الذي اتخذوه، والذي لا يخوِّل بوضوح فرض حالة الطوارئ في لينينجراد، وقال كراماريف في وقت لاحق، إن سوبتشاك وبخ الجنرال بكلمات من المؤكد لم يسمعها طوال سنوات خدمته[37]، قال له سوبتشاك: «إذا كنت تتخذ خطوة مصيرية اليوم، فالجميع سيتذكرون أنك كنت خائنًا وجلادًا»[38]، وسواء بسبب غضب سوبتشاك أو بسبب منطقه، فقد وعد الجنرال بإعادة النظر في نشر القوات، وتوقفت لساعات حاسمة.

ثم سارع سوبتشاك إلى محطة التلفاز في المدينة، وتحدث مباشرة على الهواء مساء ذلك اليوم، حيث ظهر مع ششيرباكوف ويوري ياروف زعيم المنطقة التشريعية، اللذين أُعلن أنهما قائدان محليان للجنة الطوارئ، ولكن الآن أصبح واضحًا للجمهور أنهما لم يؤيدا الانقلاب. القنوات التلفازية الوطنية في موسكو تم الاستيلاء عليها، ولكن القنوات في لينينجراد ظلت تبث في معظم أنحاء الاتحاد السوفييتي، وترك مدير المحطة البث متواصلًا كالمعتاد ما دام ششيرباكوف هناك، لكونه اليوم مسؤولًا[39]. الملايين سمعوا تصريحات سوبتشاك، وبدا واضحًا لهم أن الانقلاب يواجه مقاومة؛ «مرة أخرى، هناك محاولة لعرقلة مسار شعبنا في الحرية والديموقراطية والاستقلال الحقيقي»، هكذا بدأ سوبتشاك، وحثَّ السكان على التجمع في صباح اليوم التالي في ساحة القصر، وأشار إلى أن قادة الانقلاب وزراء (سابقون)، ومن ثم أصبحوا ببساطة (مواطنين) استُدعوا بصفتهم مدعى عليهم في المحكمة[40].

طوال ذلك اليوم الأول الحاسم، بقي فلاديمير بوتين في منتجع على الشاطئ يبعد أكثر من خمس مئة ميل، واتصل بسوبتشاك بالهاتف ليلة 19 أغسطس/آب، ولكنه لم يعد فورًا، وكان حريًّا به أن يعود، وانتظر- بدلًا من ذلك- حتى اليوم التالي، حيث التحق برحلة منتظمة من كالينينجراد[41]، كان- بكل المقاييس- مترددًا جدًّا؛ فمنذ سنة ونصف عاد من الإمبراطورية السوفييتية المنهارة في أوروبا الشرقية مستاء مما عدَّه التخلي عن دولها الرفيقة، ومن الانسحاب المهين لقواتها وضباط المخابرات، وانتصار حلف شمال الأطلسي والغرب، والرأسمالية. اليوم الاتحاد السوفييتي نفسه يختفي في طبقات وجمهوريات، حتى روسيا، وينتقل بتدهور حتمي نحو الاستقلال، وذلك يعني تمزيق بلاده وتفكيكها، وقادة الانقلاب- كما سيقول في وقت لاحق- يهدفون ببساطة لوقف ذلك، وقد عدَّ أن هذا هدفهم النبيل. وقد عدَّ رئيسَ الـ(كي جي بي) كريوتشكوف، رجلًا مغرورًا وثقيل الظل متواطئًا، وكان سابقًا يرى فيه «رجلًا محترمًا جدًّا»[42]، ومع أن نيات كريوتشكوف كانت واضحة، فإن ولاءاته لـ (كي جي بي) لم تكن ذلك؛ فكثير من الضباط الموالين للحكومة الروسية الجديدة ساعدوا بوريس يلتسين والمعارضين للانقلاب بالمخابرات وحتى بالصحافة، وحتى بعض الضباط من رتب أصغر صاغوا بيان استنكار للانقلاب[43]، أما المقدَّم بوتين، فلأنه يعمل اليوم مع أحد الديموقراطيين البارزين في البلاد، فيجب عليه تحديد موقف.

بعد مدة وجيزة من فجر يوم 20 أغسطس/آب، ذهب سوبتشاك إلى مصنع كيروف المترامي الأطراف، الذي ينتج الدبابات، والجرارات، والتوربينات المستخدمة في الغواصات النووية في الاتحاد السوفييتي وكاسحات الثلوج. المصنع الأكبر في المدينة كان هو الأسطورة في الميثولوجيا السوفييتية، بسبب دوره في الحرب الوطنية العظمى، حين ظل مفتوحًا طوال الحصار، على الرغم من كونه على مسافة ميل فقط من الجبهة. سعى سوبتشاك إلى أن يصل قبل انتهاء النوبة الصباحية؛ لحشد المصنع المؤلف من ثلاثين ألف عامل، وعندما وصل تحدث من أمام سيارة مزودة بمكبر صوت، وبعد ذلك عرض مديرو المصنع السماح للعمال بالانضمام إلى المسيرة التي دعا إليها في ساحة القصر، وبذلك بات المصنع، والشرطة،

ومعظم المسؤولين المنتخبين في المدينة، يتحدون علنًا الانقلاب. تظاهر آلاف العمال في كيروف في صفوف منتظمة تصل من أعالي ستاتشك بروسبكت إلى وسط المدينة، وقد قال ميكانيكي من بينهم: «إنهم يعرفون عواقب هذا»، وأضاف: «لقد شعروا بأنهم شعب وبشر، وقد وضعوا الخوف خلف ظهورهم»[44].

كان الحشد الذي تجمع في ذلك اليوم أكبر ما شهدته لينينجراد منذ عقود؛ فأكثر من 130 ألف شخص تجمهروا في ميدان القصر والشوارع المجاورة والكتل من حولها، وعلقت خارج متحف الأرميتاج لافتة كتب عليها: (لا للانقلاب العسكري!)، وعلى خلاف الجو المتوتر في موسكو، حيث استعد المحتجون لتحركات تقودها وحدات مدرعة في المدينة، كانت التظاهرة منظمة ومأمونة، يشرف عليها ضباط الشرطة وجهاز المخابرات الذين يفترض أن يحولوا دون حدوث ذلك.

ووفقًا لتقرير إحدى الصحف، فقد ناقش سوبتشاك خطط التظاهرة حتى مع رئيس (كي جي بي) المحلي، وقد وافق كوركوف على أن يكون هذا الحشد هادئًا[45]. تحدث سوبتشاك باختصار، تلاه ديمتري ليخاشيف، اللغوي المبجل، والمحافظ، والمؤرخ الذي نجا من الغولاغ والنفي، الذي قال للمتظاهرين: إن الشعب «لن يجبر بعد اليوم على الركوع». في مساء ذلك اليوم، ظهر سوبتشاك في الدورة الاستثنائية لمجلس المدينة في قصر ماريانسكي، وقال: إن «الوضع في لينينجراد تحت سيطرة هيئات السلطة الشرعية كليًّا»، وأعلن أن الانقلاب قد انهار في لينينجراد قبل أن ينهار في أي مكان آخر.

وصل بوتين من كالينينجراد بعد ظهر ذلك اليوم، ولكنه لم يحضر التظاهرة الحاشدة في ساحة القصر، وانضم إلى سوبتشاك في قصر ماريانسكي وبقي هناك. كان قد شاهد أداء (القائم بأعمال الرئيس الجديد) للاتحاد السوفييتي، غينادي ياناييف، الذي عقد مؤتمرًا صحفيًّا في الليلة السابقة؛ شاهده وهو يكرر أكاذيب لجنة الطوارئ حول صحة جورباتشوف، وتعهد بوضع حد لـ«متاعب الوقت الحالي»، مشيرًا إلى الاحتلال، والحرب،

والمجاعة التي أعقبت وفاة بوريس غودونوف في مطلع القرن السابع عشر، «وبعد أن شرعنا في مسار الإصلاحات العميقة، وقطعنا شوطًا كبيرًا في هذا الاتجاه، وصل الاتحاد السوفييتي اليوم إلى النقطة التي وجد فيها نفسه في مواجهة أزمة عميقة، تفاقمها قد يضع مسار الإصلاحات نفسها موضع تساؤل، وقد تؤدي إلى كوارث خطيرة في الحياة الدولية»، قال هذا ياناييف بصوت مضطرب ويداه تهتزان، وبدأ الصحفيون الحاضرون بطرح الأسئلة الفاحصة، حتى إنهم ضحكوا من إجاباته غير المتوقعة.

عرف بوتين وقتها أن مصير الانقلاب الإخفاق، وبغض النظر عن عمق ولائه للـ(كي جي بي)، فإنه لم يتبع أوامر لجنة الطوارئ، حتى وإن أيَّد نيتها بالحفاظ على الاتحاد، فجهودهم لتأكيد السلطة السوفييتية تعني نهاية هذه السلطة، يقول: «حتى ذلك الوقت لم أكن أفهم التحول الذي يجري في روسيا». تذكر عودته من ألمانيا الشرقية «كل المثل العليا، وكل الأهداف التي وضعتها عندما ذهبت للعمل في الـ(كي جي بي)، انهارت»، واليوم سيكون تضامنه مع سوبتشاك بمنزلة انتهاك لأدائه اليمين. وهكذا، وبعد ستة عشر عامًا من الخدمة في الـ(كي جي بي)، يعلن استقالته.

كانت- كما ادعى- استقالته الثانية، إذ كان قد بعث برسالة مماثلة قبل عام، وإن كانت في أوضاع أقل خطورة بكثير. خلال الاضطرابات السياسية المحيطة بمجلس المدينة، ثم مكتب رئيس البلدية، واجه بوتين الغمز حول خلفيته الاستخباراتية؛ إذ رأى بعض الناس أن ذلك قد يساعدهم، في حين هدد آخرون بفضح ذلك، وفي كلتا الحالتين أرادوا شيئًا من بوتين؛ وكان «متألمًا ومتعبًا من الابتزاز الوقح»[46]. أراد حماية سوبتشاك وسمعته، وكان قد حذره قبل أن يصبح مستشارًا له، وذكر أن هذا كان أصعب قرار في حياته، لكن كتب استقالته وأرسلها. وقتئذ، لم يحدث شيء، ولم يسمع أي شيء عن رسالته التي اختفت في التسلسل البيروقراطي، إن كانت قد وصلت أصلًا، ولم يبذل هو أي جهد للمتابعة، في تناقض لم يقدم تفسيرًا كافيًا له. وهذه المرة، في وسط الانقلاب المضطرب، أخبر سوبتشاك بقرار استقالته، وهو ما يبدو واضحًا لرئيسه ومعلمه أنه انحاز له.

على الرغم من الاحتجاج الشعبي الكبير ضد الانقلاب، فقد ظل الوضع غير مستقر في لينينجراد، وأصدر يلتسين، بصفته رئيسًا لروسيا، قرارًا بتعيين ششيرباكوف القائد العسكري لمنطقة لينينجراد، ليحل محل الجنرال سامسونوف، الذي خضع بهدوء لتحذيرات سوبتشاك بالبقاء على الهامش. نظم بوتين الدفاعات في ماريانسكي، مسلِّمًا المسدسات لمستشاري سوبتشاك، مع أنه ادعى في وقت لاحق أنه احتفظ بمسدس الـ (كي جي بي) في خزانته، كما كان في دريسدن. وبقي بضعة آلاف من المتظاهرين خارج الساحة، للحفاظ على الوقفة الاحتجاجية المتوترة وراء متاريس بحيث يكون لها ولو أثر صغير في صد الهجوم العسكري المحدد، ومن ثم وجد نفسه مرة أخرى داخل مبنى تحيط به مجموعة غوغائية متوترة تطالب بالحرية، ولكن هذه المرة كان إلى جانبها عند الحاجز.

انتشرت شائعات عن عمل عسكري وشيك، وشاع تقرير قرابة الساعة الثالثة صباحًا بأن نخبة من قوات العمليات الخاصة انتشرت من مكان سري داخل المدينة، وسوف تزحف على مكتب سوبتشاك، قال ششيرباكوف لسوبتشاك: «يمكنهم كنسنا في خمس دقائق»، وللحفاظ على سلامتهما، فرَّ سوبتشاك وبوتين، وأمضيا ليلتهما في مصنع كيروف.

قبل فجر يوم 21 أغسطس/آب، كان الانقلاب قد سُحِق، وتحرر جورباتشوف من الإقامة الجبرية وعاد إلى موسكو، وبدا أن بوريس يلتسين، الوجه العلني للمقاومة، سيصبح زعيمًا للأمة الروسية الجديدة التي ظهرت، وأصبح سوبتشاك، الذي قاد المقاومة في لينينجراد، واحدًا من الديموقراطيين الجدد وأبرزهم في البلاد. أما فلاديمير بوتين فقد انحاز- من غير إرادة منه هو- إلى الجانب المنتصر من انهيار الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك لم يشارك في النشوة التي شعر بها كثير من الروس؛ بل على العكس، كانت التجربة بالنسبة إليه تجربة صعبة، وقد وصفت ليودميلا وأصدقاؤه تلك المرحلة بأنها أحلك أيام حياته، وقال عنها: «في الواقع لقد مزقت حياتي أيما تمزيق»[47].

العقيد ليشتشيف، الذي كان أعلى منه رتبة في مقر الـ(كي جي بي) في لينينجراد، قال إن استقالة بوتين فيها من الواقعية أكثر مما فيها من المثالية؛ «فالمستقبل غير واضح على الإطلاق، مثلما أن الغموض يكتنف ما سيؤول إليه جهاز المخابرات»[48]، لقد كانت مخاطرة محسوبة؛ فلو نجح الانقلاب كان سيواجه الاعتقال، وفي الحد أدنى سيظل عاطلًا عن العمل بعد أن استقال من منصبه. وكما حدث، انتظر حتى خفتت قوة الدفع التي تحولت ضد الانقلاب.

كان ليونيد بولوخوف، الذي درس القانون معه في جامعة لينينجراد الحكومية، والذي أصبح في وقت لاحق مدعيًا عسكريًّا يفرض عقوبات شديدة في الجيش السوفييتي في عهد الجلاسنوست، قد أصيب بالذهول عندما علم أن صديقه ترك الخدمة، وقال عن ذلك: «فلوديا أدهشني مرتين؛ مرة عندما انضم إلى الـ (كي جي بي)، والثانية عندما ترك الخدمة فيها»[49].